مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 3 السنة: 2020
ص: 194 - 209 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

قراءات التراث النقدي العربي في ظل مقاربات النقد الحواري

Readings of the Arab Monetary Heritage in Light of the Approaches of the Dialogue Criticism

هاجر تقية[1]* مبروك دريدي[2]

Hadjer Taguia Mabrouk Dridi

كلية الآداب واللغات، جامعة محمد لمين دباغين_سطيف2_

University of Setif2 - Algeria

taguiahadjer@gmail.com

mabrouk_30@yahoo.fr\0697411802

تاريخ الإرسال:2019/12/01	تاريخ القبول:2020/03/19	تاريخ النشر.: 2020/09/15

ملخص البحث

يعد التراث النقدي العربي زاخرا بخزان معرفي عميق، جعل منه زخما فكريا حاملا لمظاهر التطور الفكري والحضاري والثقافي، الذي شهده العقل العربي في عصور الازدهار من القرن الثاني للهجرة إلى غاية القرن الثامن هجري شكل مادة ثرية تسابق النقاد والدارسون العرب في عصر النهضة وما تلاها لقراءته والبحث فيه، كل بحسب رؤيته ومنطلقاته الفكرية، وبحسب الاتجاه الذي تبناه، وهذا ما جعل الأطراف تتجاذبه بين قارئ متعصب له يسعى لحمايته من الحداثة ومتبنيها وكأنه نص مقدس لا يجوز المساس به ، وقارئ رافض له معتبرا إياه مصدرا للرجعية والتخلف، إلا أن هذه القراءات لم تؤتي ثمارها ولم تَعْدُ عن كونها جدلا عقيما لا غاية منه، فلابد من قراءة تستكنه ما يحمله ذلك التراث من آليات نقدية ومنهجية ومن نظريات معرفية، بحيث تعقد مع النص التراثي حوارا خلاقا يسمح للقارئ بملامسة ما يخفيه هذا التراث في باطنه، وفي حدود هذا الطرح تسعى هذه الورقة البحثية مقاربة القراءة الحوارية "التأويلية" للتراث النقدي العربي، وسؤالها في منطلقاتها ومادتها فكرا ومنهجا.

الكلمات المفتاح : التراث النقدي، القراءة، المقاربة، النقد الحواري، التأويل، المرجعيات المعرفية

Abstract :

The Arab monetary heritage is rich with a deep knowledge reservoir, which has made it an intellectual impetus for the intellectual and cultural developments witnessed by the Arab mind during the boom years from the second century until the 8th century. It is a rich material that competes with

* هاجر تقية . taguiahadjer@gmail.com

Arab critics and scholars in the Renaissance, this is what made the parties draw it together between a fanatical reader who seeks to protect it from modernity and adopting it as a sacred text that cannot be touched, and a reader who rejects it as a source of reaction and backwardness, but these readings have not been quite beneficial, it has proven to be nothing but futile. It is necessary to read the contents of this heritage of monetary and methodological mechanisms and theories of knowledge, so that the heritage text with a creative dialogue that allows the reader to touch what is hidden within this heritage, within the scope of this paper seeks to approach the interpretation of "dialogue", and the question in its premises and material thought and methodology.

Keywords: Critical Heritage, Reading, Approach, Dialogue Criticism, Interpretation, Cognitive References.

تمهيد:

شهدت الساحة النقدية العربية في السنوات الأخيرة أزمة حقيقية، هذه الأزمة تمثلت في عدم القدرة على إنتاج خطاب نقدي عربي معاصر يوازي أو يفوق ما قدمه الخطاب الغربي، ذلك أن الناقد العربي ظل يتخبط ردحا من الزمن في ظلل من الأفكار والتوجهات، كان أولها مرحلة الجمود الفكري الذي عاشه مع نهاية العصر الذهبي لغاية الحملة الفرنسية على مصر وثانيها كانت الصدمة الحضارية التي تلقاها نتيجة احتكاكه بالآخر الغربي الذي وجده يعيش قمة تطوره الفكري والحضاري والسياسي...بينما هو مازال يقبع في التخلف والرجعية والانحطاط الفكري والمعرفي، أما ثالثهما فكان الانتكاسة التي عاشها العرب بعد حرب السابع والستين أين أفاق العربي للهوة التي تفصله بين ماضيه وحاضره وبينه وبين الآخر، كما وجد نفسه في مواجهة ثنائية التراث والحداثة، فكان لزاما عليه الاختيار بينهما، وبين هذا وذاك صار الناقد العربي يعيش حالة من الانبهار لكلا الطرفين، فقد كانت المرة الأولى التي يُساءل تراثه ويسعى له بالبحث والاستقصاء ليجده زاخرا بالمعارف والفنون والعلوم زاخرا بكم من الآليات والنظريات النقدية التي تصلح لتكون اللبنة الأساسية التي يبنى عليها الخطاب النقدي المعاصر، وفي مقابل هذا أبهرته الثقافة الغربية وانجازاتها وقدرتها على تأسيس خطاب نقدي متجدد يواكب التطورات الحاصلة في المجتمع الغربي فلقد كانت كل مناهجهم ونظرياتهم رد فعل لكل واقعة عاشها ذاك المجتمع، فتأتي نظرية لتحل

الإشكاليات، لكنها سرعان ما تأتي نظرية أخرى وتنفيها وتلغي مبادئها وهكذا، إن هذا التسارع الذي يعيشه العقل الغربي أذهل الناقد العربي وأبهره فصار يطلع على كل ما تقدمه هذه الحداثة بنهم ويسعى لاستجلاب العديد من نظرياتها ومناهجها، هذا الاستجلاب كان دون وعي وإدراك لما يستجلب، وإن كان موائما للتطبيق في بيئة مغايرة كالبيئة العربية التي لها خصوصيتها الثقافية والمعرفية، وهذا ما خلق العديد من الأزمات، فوجد فيها الناقد نفسه محاطا بالعديد من الأسئلة، وجد نفسه أمام أزمة التأسيس لخطاب نقدي عربي مستقل بذاته، وأزمة منهج والذي يمنح للخطاب النقدي شرعيته، و أزمة مصطلح والذي يعد الأساس في أي خطاب فلا معنى ولا قيمة لمصطلح مستعار من لغة مغايرة لا يوجد له مقابل فاللغة العربية،وأخيرا أزمة قراءة فهو في البداية لم يفهم مصطلح قراءة أو مقاربة فهما صحيحا فكان يعتمد القراءة السطحية التي تبحث في المكرر ولا تقدم جديدا، بعدها وجد نفسه أيضا يقوم بفعل القراءة من أجل إثبات وجهة نظر تبناها فإما تكون قراءة تتعصب للتراث وتجعله مركز كل شيء، وإما تتعصب للحداثة وتنتصر لها، وتظهر جوانب القصور والنقص في التراث، وتحاول أن تمنح الشرعية لما تقدمه من مقاربات، وبين هذا وذاك كان لازما الارتقاء بالخطاب النقدي المعاصر، ومحاولة للتأسيس لنظرية عربية مستقلة بذاتها فظهر اتجاه آخر يدعوا إلى القراءة الخلاقة، القراءة الإبداعية التي تعتمد مبدأ الحوار والمثاقفة، هؤلاء النقاد هدفهم الخروج بالنقد العربي من الأزمة التي يعيشها وإيجاد حلول ترتقي بالفكر والعقل العربيين من خلال فتح جسر تواصل بين الذات والآخر، فاختار هؤلاء النقاد أن تكون نظريتهم حوارية، فسعوا لقراءة التراث النقدي العربي وفق آليات النقد الحواري أو المقاربات الحوارية والتي ولدت من رحم نقد النقد، وعليه يطرح البحث مجموعة من التساؤلات التي ستثري البحث:

ما هو المدى المعرفي النقدي الذي بلغته المقاربات الحوارية ومتبنيها في الإقناع بوجهاتها النقدية، وقدرتها على التأسيس لممارسة نقدية منتجة؟ هل الاعتماد على المقاربات الحوارية في قراءة التراث النقدي العربي يمكن أن يخلق تفاعلا من نوع خاص بين القارئ والنص التراثي ومن ثمة المساهمة في ولادة مشروع نقدي عربي جديد؟ وإلى أي مدى استطاع متبنوا هذه المقاربة في خلق جسر تواصل وحوار بين الماضي والحاضر دون تغليب أو التعصب لأحدهما على حساب الآخر؟هل يمكن اعتبار المقاربات الحوارية التأويلية بديلا عن النظرية النقدية؟

أولا: التراث النقدي العربي وسؤال القراءة:

وجد الناقد العربي نفسه _منذ فترة ليست ببعيدة_ في مواجهة سؤال مهم مع ذاته، ألا وهو سؤال التراث، هذا الأخير طرح نفسه بنفسه، وذلك بعد الخسارة التي منيَّ بها العرب بعد حرب 1967، أين وجد العربي نفسه يتخبط في متاهة بين أن يتخلى عن أصالته وهويته العربية وبين إتباع الحداثة الغربية، ولذلك اختار أغلب النقاد والأدباء على حد سواء العودة للتراث واعتباره درعا يحمي ما بقي من ماء وجههم بعد الهزيمة، كما ويحمي هويتهم وأصالتهم العربية لذلك اتخذوه مرجعا ومنهلا لهم ففي ظل "**التشتت وذيوع فكر الهزيمة...يعد التراث مرجعا ومنهلا وسلاحا لا غنى عنه، لأن أمة بلا تراث هي أمة بلا هوية ومستقبلها مشكوك فيه**"[1]، لكن سؤال التراث لم يطرح فقط من أجل ردع الموجة الغربية التي حطت رحالها في البلاد العربية، إنما هو سؤال معرفي أيديولوجي أثير من أجل حل مشكلة الفكر العربي المعاصر والذي يعاني نوعا من الجمود وعدم القدرة على إنتاج معرفة جديدة صالحة لتكون قاعدة لبناء نظريات عربية وفكر عربي متجدد، يتفوق على الحداثة الغربية ويكون المرجع الأساس لكل ناقد وأديب وأيضا من أجل تقويض مضامين التراث ومفاهيمه وأسسه التي قام عليها من أجل التأسيس لحداثة عربية، وبالتالي تسطير أرضية تقوم عليها نظرية نقدية عربية مستقلة قائمة بذاتها، تستمد وجودها من مرجعيات تراثية عربية، فصارت العلاقة التي تربط بين التراث والفكر العربي المعاصر علاقة نفعية وذلك بتسخير التراث لصنع الحاضر باعتباره عنصرا فاعلا في النهضة، ومن الزاوية المعرفية يكفيه قراءته، أو على الأصح، إعادة قراءته وفق نسق يخدم الرؤية النهضوية...إن العلاقة النفعية بين الماضي والحاضر هي التي جعلت التراث العربي الإسلامي يتميز بخصوصية لا نعثر عليها عند الأمم الأخرى تتمثل هذه الخصوصيات في ما عبر عنها بعض الباحثين ب"الإشباع الذي يتميز به مفهوم "التراث" في خطابه العربي[2]، والذي يجعله غير قابل للنقل بكل شحناته الوجدانية ومضامينه الأيديولوجية إلى أية لغة أخرى معاصر.[3] وعلى هذا الأساس صار سؤال التراث مكونا أساسيا من مكونات الحداثة العربية.

أ_التراث النقدي العربي:

يصعب على أي دارس أو باحث في النقد العربي أن يقدم مفهوما مضبوطا وشاملا لما اصطلح عليه بالتراث النقدي، وذلك لأن هذا المصطلح هو جزء من الكل هذا الكل هو "**التراث**" العربي بصفة عامة، فهو الوعاء الذي يصب فيه الفكر والمعرفة العربية على مر العصور،

وهو الإشكالية الأكبر ولا يمكننا تقديم مفهوم أو قراءة للتراث النقدي ومقاربته إلا في إطار الإشكالية العامة للتراث العربي والذي يتميز ببعد معرفي وحمولة وجدانية، جعلته أحد أهم مكونات الهوية العربية بالإضافة إلى أنه يتميز بشحنة أيديولوجية، جعلت منه أيضا مكونا من مكونات الواقع[4] وعليه فالتراث النقدي هو نمط خاص ومميز من التراث له ثقله المعرفي والوجداني والأيديولوجي[5]، كما أطلق عليه العديد من النقاد في دراساتهم المعاصرة للتراث النقدي مصطلح "**النظرية**"* فقد حملت عديد الكتب عناوين من قبيل "**نظرية النقد عند العرب**"، "**نظرية النقد العربي القديم**"، وعليه فإن هذه العناوين تلخص لنا أو تجمع لنا بشكل مكثف كل جهود النقاد العرب الأقدمين منذ أن بدأ "**الخطاب النقدي بالتشكل في الوعي العربي ابتداء من الملاحظات الجزئية التي كان يبديها الشعراء أمثال النابغة الذبياني في العصر الجاهلي وانتهاء بحصيلة النقد المنظم الذي مارسه نقاد مبدعون في تخصصهم مع ابن سلام الجمحي وأبي عمرو بن العلاء...**"[6] وكي لا نتعمق كثيرا في مسألة المصطلح فيمكننا أن نقدم مفهوما نظن أنه شامل جامع للتراث النقدي، فهو ذلك الزخم الفكري والمعرفي الذي تركه المتقدمون من نقاد وبلاغيين حول القضايا النقدية، التي تمثل أهم المسائل التي عرفها الأدب والنقد العربيين، فألفت فيها كتب ومصنفات سعى من خلالها النقاد القدامى الإجابة على العديد من الأسئلة التي شغلت الفكر العربي القديم*، والتراث النقدي هو "**تراث ضخم يمتد على مساحة عشرة قرون عرف خلالها عصورا من القوة والضعف فعكس التاريخ العربي في حركة مده وجزره، وتردده بين حركة التجديد والعقلانية وحركة المحافظة والنصية**"[7]

ب_القراءات المعاصرة للتراث النقدي نحو إبداع نقدي أم بحث في المكرر:

لقد حاول الناقد العربي منذ نهاية القرن التاسع عشر لغاية اليوم عقد علاقة معينة مع تراثه النقدي فقد سعى لتمثله وقراءته وتفسيره، وذلك لغاية في نفس الناقد الذي يسعى لإيجاد حلول للمعضلات التي يطرحها الفكر المعاصر، وقد مرت قراءة التراث النقدي بالعديد من المراحل، فلا يمكن القول بأن الناقد العربي استطاع في بدايات قراءته لتراثه أن يعي مفهوم مصطلح "القراءة"، فهو كان في مرحلة التعرف عليه، نتيجة الانقطاع والتوقف الزمني الذي عاشه العقل العربي في عصر من العصور*، فقد فهم الناقد العربي مصطلح القراءة على أنه إعادة تأريخ وتعريف بأعلام النقد وتلخيص مؤلفاتهم وتقديمها، وبعد أن احتك الناقد العربي بالحداثة الغربية ودرس نظرياتها

وآلياتها المنهجية في النقد، تطور مفهوم القراءة عنده وصار واعيا بما يقرأ، وأعطى لنقده بعدا منهجا يتسم بالدقة والعمق، ومن العوامل التي ساهمت في هذا التحول نجد:

1_ في النصف الثاني من القرن العشرين تخلصت معظم البلاد العربية من الاستعمار الذي كان يخنقها ويضيق عليها، فسعت _بعد حصولها على الاستقلال_لتحقيق السيادة الوطنية واستعادة الهوية الوطنية التي كان الاستعمار يحاول طمسها، من هنا خفة وطأة الانبهار بالآخر وتبعيته وتقليده واستهلاك ما يقدمه من معارف جاهزة، ومن ثمة التركيز على الذات وبناءها ومحاولة تطويرها، وذلك من خلال استحضار الماضي وقراءته وفهمه.

2_تغيير نظام التعليم التقليدي بآخر حداثي يتناسب وروح العصر، هذا النظام يقوم على مناهج حداثية عصرية، ومن ثمة نشأ جيل جديد من الباحثين والأكاديميين "أعادوا النظر في التراث من زوايا مختلفة ووفق مناهج وآليات جديدة فمكنهم ذلك من تجاوز الحدود التي توقف عندها دارسوا الطور الأول ويظهر ذلك خاصة في الميل نحو التخصص والاتجاه إلى التعمق في دراسة القضايا التراثية"[8].

3_انفتاح الباحثين العرب على الثقافة الأجنبية، واطلاعهم على أهم منجزات الحداثة الغربية من نظريات ومناهج نقدية، وتعرفوا عن قرب على الاتجاهات والمدارس التي نشأت _ومنهم من تبناها واتخذها مرجعا له في خطابه النقدي_ وقد أثرت رصيدهم الفكري والمنهجي من خلال اكتساب آليات نقدية جديدة تتسم بالمنهجية والدقة والموضوعية، كما ووسعت من آفاقهم النقدية،وهذا ما جعلهم يتخلون عن النمط القرائي الذي اعتادوا عليه بنمط آخر يتفق ومكتسباتهم الجديدة سواء النظرية منها أو التطبيقية، فصار فعل القراءة عندهم كما قال جابر عصفور عملية وصل جدلي بين القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة الذي أنتج فيه النص وسط ظروف تاريخية معينة وفي ظل شروط إنتاج معرفة محددة، وبين القرن الخامس عشر للهجرة الذي تحيط به أيضا ظروف معينة وصراعات فكرية وأيديولوجية تختلف عن سابقه تحتم إنتاج معرفة معينة تفرضها هذه الشروط، أي بين "هنا" و"هناك"، فالقراءة هنا تكشف لنا صورتين الصورة الأولى هي عالم قارئ النص التراثي وتوجهاته والأسس الفكرية التي يستند عليها في قراءته، أما الصورة الثانية فهي ما يحمله النص المقروء، مثلا قراءة طه حسين للأدب الجاهلي هي قراءة لذات طه حسين وتوجهاته وأفكاره المعاصرة التي تحاول إظهار جوانب النقص في التراث القديم، أكثر منها قراءة للأدب

الجاهلي في حد ذاته، فقد سعى من خلال قراءته إلى نشر أفكاره هو وإثباتها بما يناسبه هو من حجج حتى وإن كانت غير مقبولة عند القدماء حتى، أو ما يسمى "**القراءة المغلقة**" "...**إن للنص التراثي حضورين، حضور (هناك) في تاريخه الخاص، في القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة، حين كتب ابن المعتز أو قدامة أو الجرجاني، في علاقات تاريخية محددة، وفي شروط إنتاج معرفة معينة، وحضور (هنا) في تاريخنا الخاص، في القرن الخامس عشر للهجرة، حين نقرأ هذا النص التراث في ظل علاقات محددة لإنتاج المعرفة وشروط معينة تحدد طبيعة حياتنا وتوجهاتنا، وصراعاتنا، وعلاقتنا بما ندرك أو نقرأ...فمن المؤكد أن كل قراءة تكشف عن عالم قارئ النص التراثي بقدر ما تكشف عن عالم النص المقروء...**"[9].

أيضا تغيرت غاياتهم وأهدافهم المعرفية، فلم "تعد غايتهم تتوقف عند استحضار الموروث والتعرف على أعلامه ونصوصه بل تجاوزت ذلك إلى استقرا المدونة النقدية بحثا عما يكمن في نصوصها من تصورات ومفاهيم يمكن أن تضاهي ما توصل إليه الغربيون، كما واجتهدوا في استقصاء ما يربط بين تلك المفاهيم والتصورات من علاقات ناظمة تدل على أن النقاد القدماء بلغوا حدا لا يستهان به من تجريد القضايا وتجويد النظر فيها، فكانت لهم نظريات في نقد الشعر لا تقل قيمة عن النظريات الحديثة"[10] إن انفتاح العقل العربي على التجربة النقدية الغربية لم تغير فقط غايته وهدفه من قراءة التراث النقدي، ولم تغير فقط من آلياته النقدية، فقد جعلته ينسلخ عن نفسه فصار لدينا نوعان من العقل العربي، كل منهما يتبنى رؤية مغايرة عن الآخر، وكل منهما تبنى مرجعيات مغايرة عن الآخر يقيم عليها خطابه النقدي، ويقرأ التراث النقدي العربي من خلالها* هذا الاختلاف في وجهات النظر جعل قراءات التراث تتعدد وتتنوع فنجد :

1. القراءة التاريخية:

يقوم هذا النوع من القراءة على الوصف فالتراث بالنسبة لهذا النوع من القراءة وجد ضمن سياق تاريخي، لا يمكن استعادته أو إسقاطه على الحاضر، وهنا الذات القارئة لا تؤدي أي دور سلبي أو إيجابي ولذلك نجد أن حركة التأليف في تاريخ النقد العربي يصعب حصرها، فالعديد من المؤلفات حملت عنوان "تاريخ النقد العربي"، فهناك من الباحثين من يرى أن **طه حسين** قد قفز قفزة نوعية في مجال الدراسات الأدبية والنقدية من خلال القراءة التاريخية (اعتماد المنهج التاريخي) ذلك أنه

فتح المجال أمام "**إقامة حوار نقدي ثلاثي الأبعاد، حوار بين النقد العربي القديم والنقد الغربي يقضي إلى تأسيس نقد عربي حديث بالمواصفات التي تعبر عن الخصوصية النقدية بما لا يجعل النقد العربي معزولا عن الثقافة العالمية**"[11].

2. **القراءة الاسقاطية:**

تقوم هذه القراءة على مبدأ دراسة التراث النقدي بعيدا أو معزولا عن سياقه التاريخي الذي نشأ في كنفه، وأيضا تجديده من كل ما ساهم في إفرازه، وجعله "**ثقافة مجردة صالحة لكل زمان ومكان**"[12]. هذه القراءة غلب عليها الحكم الذاتي وحضرت فيها الذات المتعالية التي لا تقبل بالآخر ولا تعترف بانجازاته فصار التراث النقدي سباقا لكل النظريات والمناهج التي يدعي الآخر الغربي السبق إليها، فالنقد العربي القديم "محيط بقضايا الأدب في الماضي والحاضر والمستقبل، وإذا وقع أن النقد العربي الحديث استعان ببعض المناهج الغربية من أجل مقاربة ظاهرة أدبية جديدة فذلك لا يعني أن التراث النقدي قد سكت عنها، بل يدل على أن الناقد العربي المعاصر قد قصر في فهم ذلك التراث، ولم يملك من النضج ما يسمح له باكتشاف كل أبعاده"[13].

3. **القراءة التأليفية:**

هذا النوع من القراءة عمد فيه النقاد المعاصرون للانطلاق من الكل الأعم وهو البحث في النظرية النقدية القديمة لدى النقاد، وذلك راجع إلى تأثرهم بالغربيين الذين اهتموا بالجانب النظري ورأوا أنه لا يمكن أن يكون هناك تطبيق دون أصول نظرية يخضع لها، والمعروف أن مصطلح نظرية ظهر أول الأمر عند الغربيين، إذ أن هذا التأثر بفكرة النظرية جعل المعاصرين العرب يحاولون النفاذ إلى البنية العميقة للتراث النقدي ومحاولة الكشف عن السياق العام الذي تولد فيه وعن النظام الفكري الذي يحمله "وأيضا محاولة تسليط الضوء على المفاهيم الكبرى والمسائل المجردة التي تمثل ركائز النظرية النقدية"[14] إذ أن القارئ المعاصر لا يكتفي بالإشارة إلى مفهوم هذه المصطلحات عند ناقد واحد وإنما يتتبع تطور هذه المصطلحات وتحليلها والكشف عن أبعادها والمقارنة بينها.

إن القراءات النقدية السابقة، كل واحدة منها على مبدأ معين ويجمعها مبدأ الفصل والحكم المسبق، فكل قراءة منها تسعى لرفض القراءة التي سبقتها، ولا تسعى للاستفادة منها، فالقراءات التراثية مثلا تعلي من شأن الذات العربية وتجعلها السباقة لكل النظريات والمناهج، والقراءات الحداثية تعلي من الآخر، وتعتمد مبدأ الشك في النقد العربي، وبالتالي قطع جسر

التواصل بين التراث والحداثة وخلق هوة معرفية بينهما، فصار لازما على الخطاب النقدي العربي المعاصر أن يجد قراءة تقوم على الحوار ومبدأ الانفتاح المشروط على كل من التراث والحداثة، بغية الارتقاء بالنقد العربي المعاصر، وأيضا من أجل رسم معالم نظرية عربية نقدية قائمة على الحوارية والاستفادة من كلا الطرفين، ونقدنا للقراءات السابقة ليس معناه الرفض التام لها ذلك أن كل قراءة ما هي إلا "إفراز لوعي فكري، ومحصلة ثقافية مهيمنة، وكلما حدث تغيير بفعل التطور في البنية الثقافية، يصبح هذه المقاربة غير قادرة على الإجابة عن الأسئلة المطروحة، فيفسح المجال إلى أنموذج آخر يساير هذا التطور ويستجيب لمتطلبات الموضوع ويكون أنموذجا ملائما أكثر لهذه الهيمنة، مستقلا عن النمط الأسبق...إن كل أنموذج يحمل معه رؤية ترتبط بأسئلة معينة وتستجيب لحاجيات خاصة وحينما يعجز الأنموذج على مسايرة التطورات المعرفية والفنية الحاصلة لا يقدر على إيصال الأعمال القديمة للقارئ الحديث، فإنه يخلي المكان لنموذج آخر، قادر على خلق تقنيات تأويل جديدة، وكذا الموضوعات التي ينبغي تأويلها"[15].

إن التأصيل المنهجي عند العرب في النقد المعاصر كإشكالية أسهم في بلورة عدة وجهات نظر لهذا المنهج، فنجد كثيرا من النقاد يتناولون النص الإبداعي بالمقاربة تبعا لمنطلقاتهم الذاتية، والتي تكون في كثير من الأحيان غير محيطة بكل جوانبه، وبخاصة عند بداية الاحتكاك بالغرب كما سبق وذكرنا، إذ يرى **سعيد يقطين** "منذ بداية الاحتكاك بالغرب على الصعيد الأدبي ونحن لا نأخذ من النظريات والاتجاهات المختلفة سوى نتائجها، وما فكرنا قط...في استلهام الروح العلمية التي يشتغل بها أصحاب النظريات، إن هذا السبيل يمكن أن يقودنا في حال القيام إلى التفكير في الأخذ بالأسباب العلمية وهي إنسانية إلى تحصيل نتائج مختلفة بناءا على ما يقدمه النص الغربي من خصوصيات هي وليدة المجتمع الغربي"[16] ، إن الفرق بين الخطاب النقدي العربي والخطاب الغربي هو أن الأخير يلاحظ فيه أن النص هو الذي يحدد طبيعة المقاربة التي ستمارس عليه، وكل تطور يحدث على مستوى النص وبنيته ومضامينه ويعني ذلك بالضرورة تطورا في الممارسات النقدية وتجددا فيها، أما الأول فيحدد طبيعة المنهج والقراءة التي سيعتمدها بعدها يحدد النص، وهذا ما يمكن أن نطلق عليها غياب الوعي والإدراك وهذا ما خلق ما سمي بأزمة المنهج، فأغلب النصوص التي مورست عليها المقاربات الحديثة لا تتناسب وطبيعة الأخيرة، فكل نص خصوصيته التي تميزه عن الآخر وبالتالي كل نص يحدد طبيعة القراءة التي تلائمه وتستكنه ما

فيه*، فالاهتمام بالمنهج "اعتبارا لنتائجه خلق أزمة للنقد العربي كانت في أساسها عدم الوعي بماهية المنهج وليس إهمال خلفياته الابستمولوجية فقط، ذلك أنهم كانوا يرون المنهج كأدوات إجرائية أو وسائل تتاح للناقد من أجل مقاربة النص الأدبي، ولكونه أدوات إجرائية فهو عندهم بمثابة القالب الذي يؤتى به لوضع النص بداخله بغرض تجريبه..."[17]

ثانيا_الحوارية والخطاب النقدي المعاصر:

أ_ مفهوم الحوارية والنقد الحواري:

***مفهوم الحوارية:**

تصنف كحالة من الوعي تمنح الحق للآخر في المشاركة لإنشاء خطاب نقدي متكامل، إذ أنها "ترعى حق الآخر في الاختلاف والتعددية الحرية وإيجابية العلاقة للوصول إلى مرحلة التفهم والتفاهم"[18]. والحوارية عند **طه عبد الرحمن** عملية حجاجية بين طرفين يتخللها تبادل أدوار بين متحاورين يهدف كل منهما إلى إقناع الآخر أو إبطال حجته[19]، وجعلها في ثلاث مراتب: أولهما الحوار[20]، حيث يصدر العارض عن إيمان بصدق ما يعرض وبالتالي يغيب دور المعروض عليه في الحوار، وهو لا يختلف عن النقد المونولوجي، وثانيهما مرتبة المحاورة، حيث يرتقي المعروض عليه إلى القيام برد فعل على قول الخصم كما في "**المناظرة**"، أما المرتبة الثالثة: فهي مرتبة التحاور حيث يتقلب المتحاورين العرض والاعتراض عليه[21]، وهنا يرتفع مستوى التفاعل بين المتحاورين ويتم الاعتماد على أساليب متعددة للاستدلال تتفاوت في قوتها الحجية ضمن ما يسمى "**طرق التحاجج**"[22].

وهنا يمكن لن نحدد مستويات للقراءة الحوارية وهي ثلاث مستويات:[23]

_المستوى الأول: وعي الذات بالآخر إذا اعتبرنا أن الإبداع هو حوار "**قراءة المبدع**".

_المستوى الثاني: تحول القراءة النقدية لحوار مع الآخر ووعي به مما يجعل المبدع يقدم قراءة نقدية للإبداع "**قراءة الناقد**"، إن الخطاب النقدي قد تجرد هنا عن كونه لغة ثانية فقد اكتسب أدبية تضاهي أدبية النص الأدبي الإبداعي، فصار الخطاب النقدي لغة أولى **لغة الإبداع**، وهو ما أطلق عليه المسدي ب:**نص النص**.[24]

_المستوى الثالث: بعد أن أصبح الخطاب النقدي لأدب، فهو عند حديثه عن الأدب يصوغ خطابا من جنس الأدب فيكون بذلك نصا قابلا قد ولد نصا من نص، ليفتح الباب على نفسه

ليصبح نصا قابلا للنقد وهو ما اصطلح عليه **نص النص النقدي**، أو كما اصطلح عليه **تودوروف** نقد النقد إذ تقدم قراءة ثانية للقراءة الأولى وفيها يتبادل الناقد وناقد النقد المواقع من خلال مبدأ التحاور **"قراءة الناقد للناقد أو ما يسمى بالمقاربات الحوارية"**،"بيد أن النقد حوار، ومن صالحه الإقرار بذلك علنا، إنه لقاء صوتين، صوت الكاتب وصوت الناقد، وليس لأي منهما امتياز عن الآخر"[25].

* **المقاربات الحوارية**:

هي مقاربة تدعوا إلى احتواء الاختلاف واحترام الأصوات المتعددة، وتدعوا لخلق جسر تواصل واتصال بين الذات العربية والآخر الغربي، إذ أن هذه المقاربة لا تؤمن بمبدأ القطيعة والتعصب، وتدعوا للتأصيل بمعنى "الاتفاق على طريق وسط يتنازل فيها كل طرف عن بعض خصوصياته بما لا يفقده هذه الخصوصية، والاتفاق على صناعة شيء مشترك يجد فيه كل طرف نفسه فيه، وتشتمل عملية التأصيل تفكيك بعض الخصوصيات وصهرها، وإعادة تركيبها من جديد بملامح جديدة"[26].وهذه المقاربات حتى تكون ناجحة وتقد الجديد عليها أن تتجاوز العديد من النقاط كما عليها التنبه للعثرات التي وقعت فيه المقاربات السابقة، فها هو الزهراني يدعوا إلى: " تجاوز المركزيات المركبة في الثقافة العربية التي أدت إلى انحسار الفكر الحواري على الرغم من وجود بعض أشكاله وظواهره، وأعاق تشكله في نظرية معرفية تنطلق منه الممارسات والدراسات، وربما كان الوعي بهذه المركزية هو السبب تكون ذات تقيس بها ثقافة الآخر لذا أقترح قراءة منفتحة تسير في اتجاهين: جديد الآخر المعاصر، وقديم الذات وتعكس قراءته للقديم مفهومه للحداثة، فهي لا تعني بأي حال الاتصال بالعلوم المعاصرة بل تجاوزته إلى العودة إلى ترهين التراث واستحضاره وإسقاطه ومساهمته في حل ما يمكن من قضايا معاصرة، ولا يتحقق ذلك إلا بالحوار والتواصل"[27].

ومن مبادئ الحوارية والنقد الحواري نجد:

انفتاح الذات على أن يكون الانفتاح مشروطا واعيا، وتبنيها لفكرة الحوار ومن ثمة تعدد في الأصوات، ونتيجة للإيمان بالتعدد وقبوله يحدث احترام للآخر واعتراف به، ومن ثمة "التعاون معه من أجل تغيير الذهنية والسلوك والواقع، ثم الحوار والتعاون وتحصيل المعرفة، وتأصيل معرفة الآخر

ودمجها بثقافة الذات وصهرها، وصناعتها من جديد والتواصل المتجدد مع الماضي والآخر، قديمه وحديثه"[28].

ومن أمثلة النقاد الذين تبنوا مشروع النقد الحواري نجد:

عبد السلام المسدي: والذي عقد حوار مع البنيوية ممثلة في أعمال الناقد شكري عياد، فكان الخطاب النقدي الذي نسجه الناقد خطابا يعمد لغة إبداعية فنية من "جنس النص النقدي العيادي، المؤسس بدوره على لغة أدبية موازية لأدبية النص الإبداعي الأول..."[29] والمسدي واحد من النقاد الذين تبنوا مشروع النقد الحواري وسعوا به ومن خلاله الارتقاء بالخطاب النقدي العربي، كما وجه الأنظار نحو درجة الوعي التي وصل إليها الناقد العربي المعاصر في التعامل مع ما صبغ الساحة النقدية سنين طويلة في قدرته على التجاوز.

مصطفى ناصف: سعى هذا الناقد من خلال دراساته إلى بلورة نظرية نقدية عربية، قائمة على مبدأ القراءة الخلاقة الإبداعية التي تتجاوز الخلاف السائد في الساحة النقدية، وتتوسل فتح أبواب الحوار بين النقاد/القارئ والنصوص، وبين الأنا والآخر، والقراءة التي يحاول الباحث توظيفها قراءة واعية هي تلك "التي تحاول أن تبحث عن أصل الفكرة قبل أن تصبح إبداعا عمل أشبه بعمل الشرطي الماهر على حد قول ناصف، الذي يستطيع بذكائه جمع كل الأفكار عن ملابسات الجريمة، حتى يتسنى له الوصول إلى المعنى الحقيقي...هذه الفكرة تدعوا إلى حوار الآفاق بين القراء، حيث أين يحاور القارئ المعاصر القارئ القديم من خلال النص كوسيط بينهما لتبعث الدلالة من جديد في نص جديد ينتقل بدوره إلى قارئ في المستقبل...والقارئ هنا وهو بصدد الخوض في عملية الحوار أن يمتلك مخزونا معرفيا يسمح له بتحقيق ثمرة الحوار بمعنى إنتاج معرفة حقيقية..."[30]

والحوار الذي يعقده الناقد حوار مع النص الغائب الذي يعمد الكاتب إخفائه بين فجوات النص ليثير انتباه القارئ ويسترعي اهتمامه للبحث والتحليل والتفسير، ومن هنا رجع الناقد مصطفى ناصف إلى التراث النقدي ومحاورته وخلق جسر تواصل بين الماضي والحاضر للاستفادة منه ومما قدمه النقاد المتقدمون، ومحاولة اكتشاف مواطن التميز والتفرد فيه، لا إسقاطه على الحاضر وجعله سباقا لكل النظرية والمناهج وجعل النقاد القدامى نقادا معاصرين، "إن هذا الناقد وإن أخذ مبادئ ما ارتضاه بديلا في العملية النقدية عن غيره، كما ثبت ذلك، لكن ذلك لم يكن من مدخل التشكيك في الأصول التي أنبنى عليها التراث الأدبي العربي، بل دعوة للحوار معه لاستكناه

المسكوت عنه ما لم يقله النقاد أو تغاضوا عنه...وجعلتهم يطمسون حق هذا الإبداع الإنساني (التراث) في أن تكون له خصوصيته التي تعطيه الفرادة والتميز، وتجعله لغة التواصل عبر الأزمنة والأمكنة مع غيرها"[31].

الخاتمة:

يعد الحوار والتحاور وسيلة من الوسائل الناجعة التي يمكنها حل العديد من الإشكاليات التي تواجه العقول، فهو يسمح بمعاينة الذات لذاتها ومساءلة نفسها عن موقعها في التطورات الحضارية والفكرية والمعرفية...وعما تفتقده بجانب الآخر، من خلال الإيمان بمبدأ التعدد والاختلاف في الآراء ووجهات النظر، والتخلي عن النظرة الأحادية، فلا تطور ولا تقدم بالانغلاق على الذات، فمن المستحيل وجود ما يسمى اكتفاء الذات بذاتها، فلا تجديد ولا تجدد ولا تطور دون النظر للآخر ومحاورته، فلا يمكن التأسيس لخطاب نقدي عربي دون مساءلة الآخر في منطلقاته الفكرية وخلفياته المعرفية وفي منجزاته، والذات العربية لا تستطيع التقدم نحو الأمام سوى بالنظر للآخر لتعرف موقعها بالنسبة له، إن الحوار الذي يجب أن يعقده الناقد العربي هو حوار مع تراثه الذي يعد الأصل والمنبت الرئيسي لثقافته وحضارته وفكره، وحوار مع الآخر الغربي.

إن الحل الأمثل لأزمة النقد العربي المعاصر هو التأسيس لحوار جديد وقراءة جديدة لثقافتين في الماضي والحاضر، علينا أن نقرأ تراثنا الذي هو الأصل والأساس ونحاوره ونستخلص زبدته التي تنفعنا للتأسيس لنظرية عربية أصلها من التراث، وفي مقابل ذلك أيضا نتصل بالآخر الغربي ونتواصل مع ما قدمه من نظريات ومناهج، ونأخذ ما هو صالح ليزرع في بيئتنا.

إن تبني القراءة التأويلية يجعل النقاد يخرجون من دائرة الانغلاق على الذات ورفض الآخر والتعصب، هي قراءة تفتح باب الحوار والتحاور بين القارئ والنص وبين الأنا والآخر، فتكون النتيجة ثمرة تفاعل بينهما، كما أنها ساهمت في الكشف عن الخلفيات المعرفية التي استند إليها الحداثيون العرب.

هوامش :

[1]_ عفيف البوني. في التراث وتحديات العصر في الوطن العربي. ندوة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي أقامها مركز دراسات الوحدة العربية.مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.ط2. 1987م. ص195

[2]_ حسن مخافي. المفهوم والمنهج في القراءات العربية المعاصرة للتراث النقدي. دار إفريقيا الشرق للنشر. المغرب. 2016. ص61/60

[3]_ محمد عابد الجابري. التراث ومشكل المنهج_ضمن كتاب: المنهجية في الآداب والعلوم الإنسانية. ص72/71

[4]_ ينظر: حسن مخافي. المفهوم والمنهج. ص6

[5]_ ينظر: المرجع نفسه. ص7/6

*المقصود بمصطلح النظرية أنها الإطار الفكري الذي يحدد معالم واتجاهات النقد في تطبيقاته، مثلا البنيوية نظرية مبادئها التجريد والبحث عن المكرور الهندسي في الظواهر واجتياز المتغيرات إلى الجوهر البنيوي الناظم، والنظرية هي حوار بين ماض وحاضر كما أنها تبحث في البنية العميقة، ومهمة النظرية توضيح الأثقال والتبعات التي يمكن استنباطها من النصوص النقدية، كما أنها تقوم في ظل الاعتراف بالمسافة ومحاولة عبورها لا محاولة التنكر للنصوص ورفضها.

[6]_ حسن مخافي. المفهوم والمنهج.ص68، وتجدر الإشارة إلى أن مصطلح النظرية هو مصطلح فضفاض يتجاوز كثيرا التراث النقدي، من حيث المدى المكاني والزماني الذي يستغرقه، ومن حيث كونه متنا يعبر عن طبيعة خاصة.

*من أهم القضايا النقدية التي شغلت النقاد العرب من نهاية القرن الثاني للهجرة لغاية نهاية القرن الثامن هجري نجد: قضية اللفظ والمعنى، قضية السرقات الشعرية، قضية الصدق والكذب، قضية القديم والجديد...هذه القضايا عجت بها مصنفات النقاد أمثال عبد القاهر الجرجاني، ابن طباطبا، قدامة بن جعفر، الجاحظ وغيرهم كثير وقد شكلت مادة دسمة لهم سعوا للبحث فيها ودراستها وتوطين آرائهم حولها التي وصلت إلينا وشكلت لنا تراثا نقديا نسعى لقراءته ومقاربته.

[7]_ محمد كتاني. تراثنا النقدي بين الرؤية والإعجاز ضمن قراءة جديدة لتراثنا النقدي. النادي الأدبي. جدة. 1988. المجلد الأول. ص426

*المقصود بالتوقف الزمني هنا هو الجمود الفكري الذي عانى منه العقل العربي، وعدم قدرته على إنتاج معرفة تفيد الإنسانية، كما أنه انقطع عن العالم الخارجي ولم يعد يرى كم التطور الهائل الحاصل في البلدان الغربية التي استطاع في وقت وجيز أن تتطور فكريا وحضاريا وثقافيا، واستطاعت تجاوز الهوة التي كانت تعيش فيها، فعندما ربط الاتصال بين العرب والغرب حدثت للعقل العربي صدمة لم يتوقعها جعلته يتخذ رد فعل معاكس ألا وهو الارتداد نحو الماضي والاحتماء به من موجة الحداثة والتطور وكأن الابن كان بحاجة للأب الحامي الذي يملك كل تلك المعرفة وعرفها قبل الغربيين، فهنا طرح سؤال التراث وطرح سؤال القراءة.

[8]_ عبد القادر الحسون. قراءات التراث النقدي. المركز الجامعي. منوبة/تونس. 2015. ص94/93

[9]_ جابر عصفور. قراءة التراث النقدي. مؤسسة عيبال للنشر والتوزيع. ط1. 1991. ص7

[10]_ المرجع نفسه. ص94

*ظهر اتجاهان في النقد العربي المعاصر، أحدهما تراثي والآخر حداثي، الأول يقيم خطابه النقدي على أساس ومرجعيات تراثية ورؤية متعصبة للخطاب النقدي التراثي، وتنظر إليه على أنه خطاب مقدس لا يجوز المساس به أو التشكيك فيه، من تبنوا هذا الاتجاه يرون أن النقاد العرب قد سبقوا الغربيين بقرون كثيرة وكل ما ينسه الغرب لهم من نظريات ومناهج نقدية هي في الأساس موجودة في الخطاب النقدي العربي القديم أمثال كتب: الجاحظ، عبد القاهر الجرجاني، قدامة بن جعفر...وغيرهم كثير، قد قرؤوا التراث النقدي قراءة جافة عقيم لا تؤتي بجديد غير أنها تعظمه وتمجده وتمجد النقاد القدامى وتحتفي بهم، أما الاتجاه الثاني فهو يتبنى الحداثة الغربية بمناهجها النقدية ونظرياتها ويتخذ منها مرجعا يؤسس عليه خطابه النقدي، فقد سعى متبنوا هذا الاتجاه لقراءة التراث قراءة تبين وجه الضعف والقصور فيه وأنه لا يحمل معرفة جديدة يقدمها للإنسانية بصفة عامة وللخطاب العربي المعاصر، كما وقد شككوا من خلال قراءاتهم في مصداقيته وإن كان فعلا كتب من قبل النقاد، هذه القراءة تمت وفق مناهج غربية بحتة لم يحاول متبنوها تقويضها لتتناسب وطبيعة النصوص المدروسة والتي هي نصوص عربية نشأت في بيئة عربية وثقافة عربية، بمعنى أنها تختلف وطبيعة المناهج والآليات المعتمدة والتي هي ذات خلفية فلسفية دينية غربية نشأت في بيئة مغايرة، أي لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن تتوافق معها، وهذا ما _ربما_غاب عن ذهن هؤلاء أو ربما تغافلوا عنه لكي يخدم هدفهم وغايتهم، فتحولت قراءة التراث النقدي لدى الاتجاهين إلى مواجهة يسعى كل منها لإثبات رأيه وموقفه والفوز على الآخر، ناسين أن القراءة هي فعل خلاق كما أنها حوار متبادل بين النص والمتلقي، يسعى فيه هذا الأخير لكشف مغاليق النص الذي يقرأه ويكشف عن دلالاته المخفية من أجل إنتاج نص جديد ومعرفة جديدة.

[11]_ حسن مخافي. المفهوم والمنهج في قراءات العربية المعاصرة للتراث النقدي. إفريقيا الشرق. المغرب.2016. ص139/138، وقد رأى مخافي أن النقاد لم يفهموا ما أراد طه حسين تحقيقه من خلال قراءته للتراث النقدي ورؤيته لها، فكانت نظرتهم ضيقة وقراءتهم سطحية.

[12]_ المرجع نفسه.ص192

[13]_ المرجع نفسه. ص193

[14]_ عبد القادر الحسون. قراءات التراث النقدي. ص131

[15]_ كواري مبروك.السرد الروائي وأدبية التناصية _الرواية المغاربية أنموذجا_. أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب المعاصر. جامعة وهران. 2009/2008.ص 12/11

[16]_ سعيد يقطين. الأدب والمؤسسة والسلطة. المركز الثقافي العربي.ط1. الدار البيضاء/المغرب. بيروت/لبنان. 2002.ص69

*النص في الخطاب النقدي العربي صار حقل تجارب يستدل به على فاعلية المنهج ومدى قدرته على الاستقراء وتقديم نتائج كما يرتضونها هم.

[17]_ فاطمة سعدون. المناهج النقدية_ إشكالية التطبيق والوعي بالأصول. الجزائر. ص72

[18]_ زهير محمود عبيدات. الحوارية في "مقاربات الزهراني". الجامعة الهاشمية. الأردن. 9

[19]_ طه عبد الرحمن. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب.ط3. 2007.ص99

[20]_ المرجع نفسه. ص39

[21]_ المرجع نفسه. ص48/46

[22]_ المرجع نفسه. ص55/51

[23]_ ينظر: زهير محمود عبيدات. الحوارية في "مقاربات الزهراني".ص11/10

[24]_ ينظر : عبد الغني بارة. إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر_مقاربة حوارية في الأصول المعرفية_. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 2005. ص233

[25]_ تزفيتان تودوروف: نقد النقد.ترجمة سامي سويدان. مركز الإنماء القومي. بيروت. ط1. 1986.ص147. نقلا عن: عبد الغني بارة. إشكالية تأصيل الحداثة. ص234

[26]_ زهير محمود عبيدات. الحوارية في "مقاربات الزهراني". ص6

[27]_ زهير محمود عبيدات. الحوارية في "مقاربات الزهراني". ص6، تقوم الحوارية عند الزهراني على ثنائية ضدية الانفصال والاتصال، هذه الثنائية هي التي ينبعث منها الوعي، هذا الوعي هو وعي الذات بالآخر المختلف عنها، والذي يجعلها تبحث في ذاتها وتعود إليها، وبالتالي تشكيل جسر تواصل واتصال بين الذات والذات، وبين الذات والآخر.

[28]_ المرجع نفسه. ص8

[29]_ المرجع نفسه. ص236

[30]_ ينظر:عبد الغني بارة. إشكالية تأصيل الحداثة. 241/240

[31]_ المرجع نفسه. ص250، وهذا ما يعلنه صراحة في مؤلفاته والتي عنونها ب: قراءة ثانية لشعرنا القديم. اللغة والتفسير والتواصل. محاورات مع النثر العربي. النقد العربي نحو نظرية ثانية.